

الفصل الثامن:

فلسطين والفراعنة

رشا حسني

فلسطين الجسر البري بين قارتي آسيا وأفريقيا، كما تربط بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، بما يزر به هذا الوطن من ثروات، وما يتمتع به من موقع استراتيجي بالغ الأهمية، من أجل هذا الموقع لطالما تعرضت فلسطين للغزو، واتخذ منها الطامعون نقطة إنطلاق نحو دول عربية أخرى، وعلى رأسها مصر.

تنبه الفراعنة لأهمية آسيا بالنسبة لمصر، وبالطبع فإن آسيا، التي ارتبطت بها الحضارة الفرعونية، هي من منطقة محدودة المعالم، بخلاف آسيا المعروفة حالياً، الخاصة بالشرق الأدنى. (١)

في عصر ما قبل الأسرات المتأخرة، دلت البحوث عل أن لآسيا تأثيراً عظيم على سكان وادي النيل وسرعان ما استثمرت مصر، بدورها، شبه جزيرة سيناء وفلسطين، من الناحية الاقتصادية في عهد الدولة القديمة (٢).

كان هناك أساس قومي لما بلغته مصر القديمة، من التقدم والحضارى عماده الحركة القومية، والتي يقصد بها الجهود التي بذلها الشعب المصري بمختلف طبقاته في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة

والذود عن كيانها والدفاع عن إستقلالها (٣).

أولاً : العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة القديمة :

بدأ عهد الدولة القديمة مع بداية الأسرة الثالثة فقد وضع الفراعنة، في ذلك العهد، أسس ودعائم الحضارة المصرية التقليدية، وصار استخدام الأحجار في بناء المنشآت أمراً يسيراً ثم بدأ الإتجاه نحو المناجم، الواقعه في جزيرة سيناء، والغنية بالنحاس والفيروز (٤).

لما تولى زوسر حكم البلاد، في عهد الأسرة الثالثة، واهتم بحماية البلاد من الغارات الأجنبية، التي كانت تجتاح أطرافها بخاصة من البدو، لذلك قسم حدود البلاد إلى مناطق أطلق عليها اسم أبواب المملكة وجعل في كل منها حامية، ونصّب على كل من هذه المناطق حاكماً خاصاً حمل لقب " مرشد الأرض "، وكانت له الكلمة العليا على حكام المقاطعات وقد أقيم في العرابة أقدم الحصون المصرية حيث اهتم المصريون بإقامة حصون في الأماكن التي يُخشى تعرضها للغزو، كانوا يقيمون الحصون في المواقع التي يكون فيه النهر ضيقاً فإذا باعتهم العدو في النهر، أصبح من الصعب علي العدو ان يخرق المكان الضيق المحصن، ويتمكن منه المصريون، أما نقاط الضعف التي سهل على العدو اختراقها خاصة عند بداية الوديان التي تشرف على الصحراء، والتي يسهل على البدو وغيرهم الانقضاض منها على البلاد، فكان الفراعنة يقيمون فيها حصونا مجهزة بكل المعدات سميت " أبواب المملكة " (٥).

أما الأسرة الرابعة، فقد عُيّنت ببناء الأهرامات وأطلق على تلك " الأسرة " بناء الأهرام الكبرى، ولم يمنع ذلك من الإهتمام بتأمين حدود

مصر الشماليه الشرقية، حيث يعتقد علماء الآثار بأن السور العظيم الذي أقامه أمينمحات الأول لسد برزخ السويس في وجه المغيرين، لم يكن إلا تجديدا لسور سبق أن أقيم في عهد الدولة القديمة، ويعزز هذه النظرية أن اسم " البحيرات المرة "، كما كُتب في متون الأهرام، خصص في نهايته بسور " هرم بيبى الأول " يضاف إلى ذلك أن الفرعون " سنfro " من الأسرة الرابعة، قد خلد اسمه، ضمن أسماء عدة قلاع في هذه المنطقة (٦).

استمر فراعنة الأسرة الخامسة في تشييد أهرامات، ولكن أقل حجماً من أهرامات الأسرة الرابعة، واستمروا كذلك في إرسال حملات إلى محاجر " الديوريت " ببلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء، وإلى مدينة " جبيل " بفينيقيا كما عملوا على تأمين الحدود عن طريق شن غزوات حربية على الليبيين والنوبيين والبدو الرُّحْل (٧).

الجيش والأسطول معاً لأول مرة في التاريخ:

في عهد الأسرة السادسة أرسل الملك " بيبى الأول " القائد " ونى " على رأس الجيش في حملة ضد فلسطين، تعد الأولى من نوعها في تاريخ مصر والعالم إذ أنها أول حملة يشترك فيها الجيش والأسطول وقد تجنب الجيش المصرى الطرق الصحراوية وانتقلت القوات عن طريق البحر، إلى نقطة الهدف وسبب القيام بهذه الحملة تزايد الهجرة من أهل بلاد ما بين النهرين " موبوتاميا "، وتقدمهم في هجرتهم إلى أن وصلوا إلى فلسطين ثم الحدود المصريه مما اضطر فرعون مصر آنذاك إلى منع هؤلاء المهاجرين الآسيويين من دخول مصر (٨).

غير أن " الدولة القديمة " انهارت تملما في أواخر عهد الأسرة السادسة بسبب تفاقم النزاعات الاستقلالية وإن حافظت على المستوى للبلاد ولم تتوقف الإمدادات الغذائية والتبادل التجاري بين البلاد المجاورة (٩).

يتضح مما سبق إدراك الفراعنة لأهميه تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية والتصدي للهجمات أو الغزوات التي تتعرض لها فلسطين حتى لا تمتد يد الغزاة في مرحلة تالية، نحو مصر.

تؤكد الوثائق التاريخية على أن أهم الوظائف التي ظهرت في مصر القديمة وظيفه " قائد قلعة الأراضي الشمالية " ولا يعزى هذا اللقب إلى قلعة في فلسطين أو سورية بل إلى قلعة الشمال الشرقي من الحدود المصرية ضمن سلسلة الحصون التي أقيمت لحماية الحدود من هذه الناحية، حيث كان لابد لمصر من معقل يعززها جيشها عند حدودها الشرقية أما في الجنوب فكانت حدودها محمية ببلاد النوبة، التي كانت تحت حكم ملك مصري منفصل بإرادتها (١٠).

ثانيا العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الوسطى :

شهدت الأسرات من السابعة إلى العاشرة ببلبة شديدة نتجت عن التطاحن الذي ساد بين مختلف الطامعين في العرش إلى درجة أن الأسرة العاشرة اعترفت بوجود " الأسرة الطيبية " نسبة إلى طيبة بمصر العليا المنافسة لها وإن كانت قد حافظت على حدودها عند الدلتا الشرقية من خطر الآسيويين وحرصت بشكل أو بآخر على صيانة التراث الثقافي (١١).

استحوذت الأسرة الحادية عشرة على الموارد الطبيعية، وكذا الثقافية، التي سمحت لها باستئناف السياسة التقليدية لكبار الفرعنة من إرسال بعثات إلى المناجم والمحاجر ومصادر التجارة الخارجية وترميم وإصلاح المعابد وتشييد المباني الجنائزية على أوسع نطاق (١٢).

كانت مصر - في تلك الفترة - تجد كفايتها في تربة أراضيها ولا تخرج عن نطاق حدودها، إلا عندما كانت إحدى الممالك المجاورة تهدد حدودها، أو عندما تغير على تخومها، طلباً للغنائم. وفي أوائل عهد "إمنمحات الأول" مؤسس الأسرة الثانية عشرة تقدم في زحفه إلى فلسطين ويرجح أنه أول من اهتم بحماية التخوم وأقام القلاع في وادي "النطرون"، و "الواحة الخارجة" (١٣).

عمل الفرعنة، منذ عهد الدولة الوسطى على تأسيس إمبراطورية مصرية في الأصقاع الآسيوية، المجاورة لمصر، غير أن هذه الإمبراطورية التي بدأت تأسيسها في تلك الحقبة كانت تهتم بمد نفوذها على الأفكار الخاضعة لها، وفرض الضرائب على أهلها، وتهديدهم بالغزو، إذا حاولوا التمرد، وكان ذلك في عهد أواخر فرعنة الأسرة الثانية عشرة (١٤).

تمكنت الأسرة الثانية عشرة من صياغة سياسة خارجية فعالة ارتكزت على معرفة البلاد المجاورة وإقامة علاقات متنوعة معها، وفي إطار ذلك، تم تعزيز النشاط التجاري مع سوريا وفلسطين، وفي الوقت نفسه هاجر العديد من الآسيويين إلى مصر ولا شك أن قصة سنوهي تعكس ذلك تماماً (١٥).

و "سنوهي" هو هارب سياسي، قر من منطقة المراقبة المصرية عند موت "أمنحات الأول" قد مر في رحلته بساحل فينيقيا ثم اخترق الجهة الشرقية حيث استقبله أحد أمراء "رتنو العليا"، وهو إقليم غنى بالفاكهة والكروم والماشية رغم أنه كان يعيش على مقربة من طريق يرى منه الذهاب إلى مصر والراجع منها، فإنه لم يكن في متناول الشرطة المصرية أو حتى سلطانها القضائي، ويرجح أنه كان يسكن في إقليم "بقعا"، الذي يحتوى على طريق يمتد شمالا وجنوبا بين لبنان والإقليم المقابل له، ويؤكد ذلك أن المراقبة الفعلية المصرية في هذه الجهات كانت في فلسطين وفينيقيًا، أكثر منها داخل بلاد سوريا، قبل أن يتمكن الفراعنة، الذين حكموا في نهاية الأسرة الثانية عشرة من مد نفوذ مصر إلى آسيا^(١٦).

في عهد إمنحات الثاني عادت العلاقات بين مصر وجاراتها في الشمال الشرقي، في سوريا وفلسطين، على أحسن ما يكون، وقد كان هؤلاء الأعداء من طراز خاص، حيث كان في مقدورهم أن يهددوا الأمن على الحدود لكنهم، في الوقت نفسه، لم يستطيعوا المقاومة، وهم، دائما، في حرب ينتصرون أو يهزمون، ولا يعلنون يوم هجومهم، لذلك كان أكبر ضمان ضد جار كهذا، أن تقيم الدولة المعازل، والحاميات، على الحدود، وقد تم تشديد الرقابة على الحدود الشرقية لمصر، حيث يُحمى الطريق المسمى "طريق حور" بقلعة سارو، الذي يؤدي إلى الصحراء، بواسطة "وادي طليمات"، قد سُد "بجدار الأمير"، وإن كان سلطان الفرعون أكثر إمتدادا، داخل سوريا، فقد كانت المحاصيل الآسيوية ترد

إلى مصر، وكان " أمنمحات الأول " يمتلك على النيل، مثل سلفه " سنفر " أسطولا من السفن المصنوعة من خشب الأرز، المصدر من " جبيل " (ببلوص). وقد كان البدو يسعون إلى الإقامة في مراعى وادى النيل، كلما تعرضوا لضيق الرزق، وبهذه الطريقة وفد في السنة السادسة من حكم " سنوسرت الثانى "، رئيس الأجانب " إيشا " ومعه عشيرته، التي كانت تتألف من ٣٧ من الكنعانيين (١٧).

كانت آسيا ميدانا للحروب، غير أن سيطرة " امنمحات الأول " و " سنوسرت الأول " لم تمتد قط أكثر من إخضاع شبه جزيرة سيناء. ومن جهة أخرى فقد قامت في عهد " سنوسرت الثالث " حملة إلى فلسطين وسار قائد الجيش نحو الشمال، ليخضع الأسويين ويدل تمثال " تحوتى حتب " الذي عثر عليه في بلدة " مجدو "، وتمثال " سنوسرت عنخ "، الذي إكتشف في " رأس شم " على أن العلاقات المصرية الأسبوية لم تقتصر على النواحي التجارية والثقافية فحسب، بل كانت ثمة علاقة حربية وإدارية أيضا، وتدل الشواهد على أن ملوك الدولة الوسطى مدوا نفوذهم إلى آسيا، وأنه كانت هناك إمبراطورية من نوع خاص، ضمت هذه الأقاليم الأسبوية المتاخمة (١٨).

وقد إكتشف تمثال يخص " سنوسرت عنخ " في آسيا، واعتبر أهم دليل على أن هذا الوزير المصرى خدم في بلد أجنبى وشغل مركزا ساميا فيه، ويحتمل أن إقليم سوريا، عندئذ، كان خاضعا لمصر، وإن كان مستقلا اسميا، كذلك إكتشف تمثال لتحوتى حتب الكاهن الأعظم، الذي أقام في مدينة " مجدو " بما يؤكد النفوذ الإمبراطورى لمصر في آسيا

شهدت مصر في أعقاب الأسرة الثانية عشرة حالة من إهتزاز العرش، تجلت خلال الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، حيث تتابع على الحكم حوالي ستين فرعوناً، لم يبق معظمهم على كرسى العرش إلا بضع سنين، وأحياناً بضعة أشهر. وكان عدد كبير من هؤلاء الفراعنة من العامة والعسكريين والأجانب (الآسيويين)، وقد ظهرت أسرة جديدة في " أفاريس "، الميناء النهري المؤدى إلى أسيا و " جبيل ". واستطاع الهكسوس بإزاحتهم لتلك الأسرة الأخيرة أن يضعوا أيديهم على مصر خاصة وان هذه الأسرة كانت تعيش في منطقة " أفاريس " الخاضعة للملكة المصرية إلا أن غالبية سكانها كانوا من الآسيويين لذا سرعان ما طوتها موجة الهكسوس، الذين بسطوا نفوذهم على مصر إنطلاقاً من تلك المملكة (٢٠).

ثالثاً: الهكسوس في مصر:

قبل كشف رموز اللغة الهيروغليفية، كانت المعلومات الخاصة بالهكسوس تنحصر فيما رواه المؤرخ اليهودي " فلافيوس يوسفس "، الذي عاش خلال القرن الأول الميلادي وقد أخذ معلوماته من المؤرخ المصري " مانيتون " محاولاً رفع شأن اليهود، بادعاء أنهم و الهكسوس عنصر واحد. يقول يوسفس عن مانيتون: " تجرأ قوم من أصل وضيع، من الشرق، على غزو بلادنا في عهد تحتمس، وتمكنوا من البلاد دون نشوب واقعة حربية، وبعد أن تغلبوا على القادة أحرقوا المدن بوحشية وأزالوا معابد الآلهة وساروا في معاملة الأهليين، بكل قسوة، فقتلوا

الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وفي نهاية الأمر نصّبوا واحدا منهم " سالائيس " ملكًا واتخذوا مدينة منف مقرا له.. وتوفى، بعد أن حكم البلاد ١٩ سنة تولى بعده خمسة ملوك كان الملوك الستة يطمعون في محو الشعب المصري " (٢١).

واستطرد المؤرخ اليهودي يوسف في روايته مدعيا أنه بعد هزيمة " الرعاة " (الهكسوس) واستسلامهم، مقابل عقد معاهدة تنص على أن يجلبون عن كل أرض مصر، غادر منهم ما لا يقل عن ٢٤٠ ألف أسير، حملوا متعاهم، مخترقين الصحراء إلى سوريا ولخوفهم من الآشوريين، أقاموا مدينة في الإقليم الذي يدعى " يودا" (٢) "صالحة لإيواء جمعهم الهائل، وأطلقوا عليه " أورشليم " (٢٢).

فقد المؤرخون هذه الرواية، وشككوا في صحتها من حيث عدد رجال الهكسوس، وعدم معقولية إقامتهم لمدينة جديدة فور طردهم من مصر ولا يخفى ما لتلك الرواية من قيمة في نظر المؤرخ اليهودي المتحيز، أما الرأي المتفق عليه فيفيد بأن كلمة " هكسوس " مركبة من كلمتي " حقاو "، " خاسوت " الهيروغليفية، وتعنيان " حكام الأقاليم الأجنبية " (٢٣).

من ناحية أخرى، أشار بعض المؤرخين إلى أن الهكسوس هم أنفسهم " العمالقة " الذين ينتمون للقبائل الكنعانية، التي أقامت في جنوب فلسطين وسيناء وقيل بأن فريقًا منهم نزل بلاد نابلس (٢٤).

على أية حال، فإن أهم ما يلفت النظر في غزو الهكسوس لمصر، هو الكيفية التي نفذوا من خلالها تلك الخطوة فقد كانت ثمة فكرة راسخة عند

عامة المؤرخين بأن الهكسوس استولوا على مصر فجأة، عندما اندلعت الحروب الداخلية فيها غير أنه توجد عدة دلائل تؤكد بأن أولئك الغزاة كانوا يمثلون قوة ثقافية في وادي النيل، منذ عهد " سنوسرت الثاني، " أى في منتصف عهد الدولة الوسطى، عندما كانت مصر في أوج عظمتها، وقد غزا الهكسوس مصر، تدريجيا وتسربوا تدريجياً وتسربوا للبلاد، في جماعات صغيرة متفرقة إلى أن تمكنوا من توطيد أسرة تمثلهم وهي الأسرة الخامسة عشرة^(٢٥)...

من المسلم به أن الهكسوس قد تمكنوا من مصر بعد أن تسلطوا على فلسطين، من قبل، ولم يقدوا إلى مصر بوصفهم فاتحين أو غزاة، بل بوصفهم مهاجرين مسالمين، مكَّنوا أنفسهم بمثابة ملوك صغار في الدلتا الشرقية، ومنها أفلحوا في التغلب على صغار ملوك الوجه القبلى، الذين كانوا لا يحكمون إلا مددًا قليلة ويبدو واضحًا من متن خاص بحرب التحرير لرفع نير الهكسوس، أن بلدة " شاروهين " في فلسطين الجنوبية، كانت معقلًا للهكسوس، وقد فتحها " أحمس " بعد أن قام بحصار ناجح بلدة " أواريس " عاصمة الهكسوس في مصر، التي يدل وقوعها في الدلتا الشرقية على أن الهكسوس كان لهم علاقة وثيقة بفلسطين ومن المحتمل أن يكون قد حكموا الجزء الجنوبي منها ^(٢٦)..

تبرهن كثير من الآثار على أن الهكسوس كان لهم إتصال وثيق بأسيا، ومن ثم أخذوا عنها قوتهم الملحوظة في فنون الحرب، خلال الحرب الفاصلة التي شنها على المصريين، الذين إعتمدوا بدورهم على أراضيهم الخلفية في أفريقيا؛ وهكذا نخرج بفكرة أن حروب التحرير هذه

كانت حروبا بين آسيا وأفريقيا وتشير الوثائق إلى ان " كاموس " قد بدأ في طرد الهكسوس وان أخاه " احمس " قد نجح في طردهم، نهائيا، من مصر فقد سقطت " اواريس " بعد حصار طويل، ثم سقطت " شاروهين " الفلسطينية، وبسقوطها أبعد الخطر عن الشمال المصرى وكسرت شوكة الهكسوس على الأقل في هذه الفترة (٢٧)

غرس تحرير البلاد من الهكسوس الروح القومية في نفوس المصريين وحفزهم لغزو معاقل الهكسوس في فلسطين وسورية ولبنان، فشنت مصر عليهم وعلى حلفائهم في عهد الدولة الحديثة، حروبا دفاعية بقيادة " تحتمس الثالث " بطل معركة " مجدو " عام ١٤٧٩ ق.م. استمرت هذه الحروب لسنين عدة، حتى اطمأنت مصر على كيانها، ومن ثم اتسعت رقعتها فامتدت حدودها من أعالي الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا (٢٨)...

كانت الحروب التي خاضتها مصر في سبيل تأمين حدودها، حروبا دفاعية هدفها الدفاع عن النفس ولم تكن بهدف الفتح أو الغزو، ولم تكن مصر تحارب أهل تلك البلاد بل حاربت الهكسوس الذين اتخذوا منها قواعد للانقضاض على مصر، نفذ هذه السياسة الدفاعية القومية ملوك مصر خاصة تحتمس الثالث و رمسيس الثاني (٢٩) ..

رابعا: العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الحديثة :

على الرغم من أن الغارات التي قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة في، أول الأمر مخترقين بها جبال " الكرمل " عام ١٥٨٢ ق.م، قد لا يكون الدافع لها، في الأصل، إلا الانتقام من الهكسوس فإنه كان يستهدف

كذلك تلاشى مد الهكسوس وقد تعلم المصريون من تلك الأحداث وكانت حملاتهم في الجنوب الغربى لآسيا في عهد "أحمس الأول" وعهد "تحتمس الأول" مقدمة لتمكين ملكهم هناك وحتى ذلك الوقت كان الأمر قاصراً على الإغارة على قبائل البدو أو على أهالي "رتنو" في جبال الجليل دون الاستيلاء على أماكن حصينة مثل عسقلان أو مجدو أو غزة إلى أن اتخذ تحتمس الثالث موقفاً جديداً تجاه آسيا (٣٠)...

بعد أن انفرد "تحتمس الثالث"، بالحكم، أخذ في تأسيس إمبراطورية في أقاليم آسيا بصورة ثابتة وسياسة مخططة، بالاستيلاء على "غزة" و "مجدو" والأماكن الحصينة الأخرى في فلسطين، ثم لتحتمس الثالث ضم الجزء الجنوبي الأقصى من سوريا وكانت هذه الإمبراطورية من الدرجة الثانية، أى أقاليم يدير شؤونها حكام من أهل البلاد نفسها. نصّبهم الفرعون برضى منه لولائهم له، إلى جانب بعضهم الحاميات والعمال الذين عينهم الفرعون هناك وكانت حدود الإمبراطورية تبدأ من ساحل البحر المتوسط وشمالي "إرواد" ثم تنحني إلى الجنوب عند انفصال نهر "العاصى" عن نهر "الأردن"، ثم تأخذ بالتلاشى في الصحراء الشرقية، على مسافة ضئيلة من جنوبى "دمشق"، وكان الجيش المصرى يقوم بحملات تأديبية في جهات مختلفة من هذه الأقاليم السورية الشمالية ولم يقتصر ذلك على شمالي "فينيقيا" والجزء الأسفل من نهر العاصى بل امتدت هذه الحملات إلى بلاد نهرين "حتى وصلت إلى بلدة "توب" (٣١)...

كانت الإمبراطورية المصرية في آسيا من اعظم الإمبراطوريات

التي ظهرت في الشرق القديم. فقد مهدت الحملات التي بدأها تحتمس الأول لترسيخ السيادة المصرية على تلك البقعة الشاسعة من آسيا، التي تبدأ من الحدود عند برزخ السويس، وتنتهي عند منحى الفرات، ولا أدل على أهمية تلك المنطقة لضمان إستقرار مصر من عدم وقوع حروب تستحق الذكر، في عهد خلفه تحتمس الثاني والملكة حتشبسوت، كما لم يُسمع بثورات في سوريا، إلى أن ألف قلول أمراء الهكسوس والولايات الأخرى حلفاً ضد مصر مما اضطر تحتمس الثالث لمواجهةهم، وتكوين تلك الإمبراطورية المصرية الشاسعة. ضماناً لأمن مصر (٣٢) ..

منذ بداية عهد الدولة الحديثة تولى " كتاب المجندين "، المسؤولية عن حماية قواعد الحدود وأهم هذه القواعد الحصون الواقعة بين حدود مصر و آسيا والقائمة منذ فجر التاريخ المصري، فقد أقيمت في عهد الملك " سنfro - كما سبق الذكر - ثم أقيمت، مرة ثانية، في العهد الإهناسي وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، أصلحها " امنحات الأول "، وأضاف إليها وسماها " سور الحاكم "، وحمل قائد تلك الحصون في الأسرة الثامنة عشرة لقب قائد حصن " سيلة " واتخذت مقراً للإدارة ونقطة الوسط لخط الدفاع وفيها المركز الرئيسى ومنها قامت الحملات التي شنّها الفرعون على بلاد سوريا (٣٣) ...

بعد موت أختاتون تولى العرش " سمنخارع " ثم خلفه " توت عنخ آمون " وفي عهده ازداد نفوذ القائد " حور محب " وانتصر في عدة معارك، من بينها معركة ضد أهل " خيتا "، التي تلاها عشرون عاما من الهدوء، على أن ذلك مكّن المصريين من متابعة حروبهم التي شنوها

على أهل فلسطين بسبب ثورتهم على الحكم المصري وكان أكثرهم إثارة للقلق قوم "خبيري" (اليهود فيما بعد "وتمكن" حور محب "من إخماد ثورتهم" (٣٤) ..

قبل تولية "رعسميس الأول" الملك، عمل قائدا لقواعد الدفاع على الساحل، كما أشرف على الحدود الشرقية الشمالية، ويضاف إلى ذلك أنه عمل على حماية طرق الصحراء المؤدية إلى فلسطين؛ وكان من واجبه ألا يدع شخصا غير معروف يدخل الحدود المصرية أو يغادرها ويلاحظ توافر معلومات كثيرة عن حراسة الحدود الشرقية في الدلتا بينما تتضاءل المعلومات عن حراسة الحدود الغربية لها وربما يعزى ذلك إلى أهمية الحدود الشرقية ودورها الرئيسى في ضمان استقرار مصر.

بالبقاء نظرة سريعة على ملوك الأسرة التاسعة عشرة في الدولة الحديثة يمكننا تبين أن الإمبراطورية المصرية في آسيا تعرضت لفترة من الاضمحلال لم تنتهِ إلا عندما تولى "حور محب". وفي تلك الحقبة، كانت أملاك مصر السابقة في آسيا قد أصبحت في يد ملوك آسيويين على أن هذه الممتلكات لم تكن قد ضاعت من مصر نهائيا لأن الفراعنة الذين أتوا بعده أعانوا لمصر تلك الإمبراطورية التي تسيطر عليها، سيطرة إمبراطورية من الدرجة الثانية، وعلى رأسها فلسطين وفينيقيا، غير أن الفراعنة لم يستطيعوا الحفاظ على هذه البلاد، فنجد مثلا أن مدينة "أرواد" كانت تساعد عدو "رعسميس الثانى" في موقعة قادش رغم فوزه بها إلا أن انسحابه العاجل من المعركة والمعاهدة التي أبرمها مع "خيتا" دلت على تخلى مصر عن سياستها على سوريا فيما بعد جنوبى فلسطين،

وحتى هذا الإقليم الأخير وفقد، بعد عهد " رمسيس الثالث "، أحد ملوك الأسرة العشرين^(٣٥).

بدأ رمسيس الثاني متحمسا للحرب واستعادة المناطق السورية التي كان تحتمس الثالث قد شيد من خلالها إمبراطورية مصرية عظيمة غير أن رمسيس الثاني لم يحقق على مدى عشرين عاما في الحرب نجاحا يذكر وانتهى إلى معاهدة لم تحقق شيئا ذا بال مما كان يتطلع إليه^(٣٦)...

في معركة قادش أفلت رمسيس الثاني من هزيمة محققة إذ كانت معلوماته خاطئة بالنسبة لموقع الحيثيين ولم يكن لديه جنود استطلاع، كما لم يحصن جناحيه في المعركة ومن المحتمل أن الحيثيين بدافعهم نحو الغنائم، أتاحوا لرمسيس الثاني وجنوده فرصة لتحقيق انتصار جزئي، واتجهت الغارات المصرية صوب الجنوب، دون أن تستولي على قادش.^(٣٧)

يبين الفرق جليا بين رمسيس الثاني وتحتمس الثالث الذن كان من أبطال الحرب والكفاح ففي حين كان رمسيس يميل إلى السلم لم يكن على كفاءة تحتمس في المعارك، فقد كاد تسرعه في معركة قادش يورده مورد الهلاك لولا تدخل القدر^(٣٨)...

في عهد رمسيس الثاني عظم النفوذ السامي بمصر وقتئذ، ثم ظهر الأوروبيون لأول مرة في تاريخ مصر القديمة، فانزلوا جنودهم على ساحل غرب الدلتا، أدى ذلك النفوذ فيما بعد إلى اضطراب البلاد وسقوط الأسرة التاسعة عشرة.^(٣٩)

قامت حركة التمرد التي قام البدو الآسيويين في فلسطين، في عهد " سيتي الأول"، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المتأخرين، حيث سعوا لتوطيد أقدامهم في فلسطين وانهز البدو المغيرون الفرصة للتخلص من تسلط مصر على بلادهم مما دفع سيتي الأول إلى قيادة حملة ضد فلسطين مخترقا صحراء قاحلة في شمالي شبه جزيرة سيناء، جنوب بحيرة " سربونيس"، وكان هذا هو أقدم طريق في العالم وهو الذي استخدم للغرض نفسه في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ويمتد شرقا من ثارو حتى رفح في المرحلة الثانية من الحرب، وبعد أن غرس " سيتي الأول" الخوف في قلوب المتمردين اشتبك في معركة دامت يوما واحدا وانتهت بانتصار الجيش المصري انتصارا باهرا^(٤٠).

على الرغم من أن سيتي الأول لم يوافق في عهد الإمبراطورية المصرية آسيا إلى ما كانت عليه في عهد الأسرة الثامنة، فإنه أفلح، إلى حد كبير، في إعادة السيطرة المصرية على فلسطين كلها، وواصل نضاله، أمام دولة " خيتا" في الشمال، التي كانت تقف لمصر بالمرصاد " (٤١).

أعقب هذا النجاح في الحفاظ على نفوذ مصر وهيمنتها على آسيا إخفاقا جديدا فبعد الجهود التي قام بها الملك " سيتي الأول" ومن بعده رمسيس الثاني، ثم مرنبتاح، في دحر الغزاة، والاحتفاظ بفلسطين واجه الملك " سيتي الأول"، ابن " مرنبتاح"، معارضة من جانب الطامعين في الحكم وبعد سنوات عدة غاب عن مصر القائد الزعيم فوقعت فريسة في أيدي كبار الموظفين، والحكام المحليين، استطاع أحد السوريين أن

ينصَّب نفسه حاكماً للبلاد، وقام أعوانه بإبتيزاز الشعب المصري، ثم قام الملك " ستخت " بوضع حد لهذه القلاقل مؤسساً السلالة الملكية الثانية المعروفة بإسم الرعامسة ثم تولى الحكم بعده سبعة ملوك آخرون حملوا إسم " رعمسيس " (٤٢).

عمل " رمسيس الثالث "، ابن " ست نخت " على إنقاذ مصر من هجمات الليبيين وغزوات البحر، واحتفظ ببعض المواقع في الأراضي الكنعانية ثم سادت بعد ذلك مرحلة طويلة من التدهور وطول ثلاثة أرباع قرن من الزمان لم تضع مصر قدميها في سيناء بعد موت " رعمسيس السادس " (٤٣).

من اللافت أن معظم الغزاة - إن لم يكونوا كلهم - قد اختاروا، في الحقب التاريخية المختلفة، البوابة الشرقية لحدود مصر، موطناً لأقدامهم على سبيل المثال، فقد بدأ " قمبيز " - أول عاهل فارسي - الحكم على مصر عام ٥٢٥ ق.م. - بتجريد " أحمر الثاني من حلفائه، متحالفاً هو مع كل من ملك جزيرة " ناموس "، وملك فينيقيا، ما سهَّل لقمبيز تعزيز الحملة البرية على مصر وأسطوله البحري، وأساطيل حليفية، يضاف إلى ذلك أن قمبيز وجد تعاوناً من البدو، وقد ضمن قمبيز لنفسه قاعدة أورشليم " فضلاً عن إكتساب الفرس عواطف الجنود اليهود الذين كانوا في خدمة الفرعون وقد جمع " قمبيز " جيش في فلسطين وأرسى أسطوله على ساحل عكا وبدأ هجومه على مصر، في ربيع ٥٢٥ ق.م. فزحف الجيش الفارسي من غزة وتقابل مع الجيش المصري وهزمه في مدينة " الفرما " إلى أن سقطت العاصمة منف (٤٤).

تأكد مما سبق وبمتابعة سياسات الفراعنة في مصر القديمة إدراكهم لمدى أهمية فلسطين على وجه الخصوص ودورها في الحفاظ على استقرار مصر وأمنها وأنه في كل مرة تتعرض فيها فلسطين للغزو سرعان ما يتطلع الغزاة نحو مص متخذين من فلسطين لوحة قفز تمكنهم من تثبيت أقدامهم في مصر والإنقضاض على خيراتها وإستغلال موقعها الجغرافي المميز.

وبالطبع فإن مراحل التاريخ، المختلفة تشكل دروسا علينا الإستفادة منها وإعادة النظر في تقييم أهمية فلسطين بالنسبة لمصر ودور مصر تجاه فلسطين فالمصير مشترك منذ فجر التاريخ، ولا يخفى على أحد أنه سيظل واحدا، ولن تتمكن مصر من تحقيق أمنها، أو تقدمها الاقتصادي، إلا بحصول فلسطين على حريتها وأمنها، ولا يمكن لفلسطين تحقيق ذلك الهدف المأمول إلا إذا وقفت إلى جوارها مصر وتكاتف معها الوطن العربي.

* * *

مراجع الفصل الثامن

- (١) باسكال فيرنوس وجان يويوت، ترجمة د. محمود ماهر طه، موسوعة الضراغة، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١، ص٤٨.
 - (٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص٤٢٤.
 - (٣) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩، ص١١.
 - (٤) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧.
 - (٥) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.
 - (٦) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.
 - (٧) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.
 - (٨) سليم حسين، موسوعة مصر القديمة، ج ١ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.
 - (٩) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٣١ - ٣٢.
 - (١٠) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٢.
 - (١١) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢ - ٣٤.
 - (١٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.
 - (١٣) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٣ الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤١١ - ٤١٢.
 - (١٤) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٠.
 - (١٥) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.
 - (١٦) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.
 - (١٧) المصدر نفسه، ص ٤٢١ - ٤٢٢.
 - (١٨) المصدر نفسه، ص ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠.
 - (١٩) المصدر نفسه، ص ٤٣٤، ٤٣٦.
 - (٢٠) فيرونوس، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ - ٤١.
 - (٢١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٧ - ٥٩.
- (*) وردت في نسبة كبيرة من المراجع " يهودا ".

- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٠.
- (٢٤) أحمد سلامة النحال، فلسطين أرض وتاريخ، ط ١، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٤، ص ١١٨ - ١١٩.
- (٢٥) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٤ - ٥٦.
- (٢٦) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٠ - ٢٤٢.
- (٢٨) الرافعي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ٧٣.
- (٣٠) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.
- (٣١) المصدر نفسه، ص ١٨١ - ١٨٢.
- (٣٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.
- (٣٣) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٣ - ٤٩٤.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٨.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص ١٨٥، ١٩٢، ١٩٣.
- (٣٦) كنت أ. كشن، ترجمة د أحمد زهير أمين، مراجعة د محمود ماهر طه، رمسيس الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٤٩.
- (٣٧) بيير مونتييه، ترجمة عزيز مرقس، منصور، الحياة اليومية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٣.
- (٣٨) الرافعي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.
- (٣٩) المصدر نفسه، ص ١١٠.
- (٤٠) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٢، ٣٥، ٣٨.
- (٤١) المصدر نفسه، ص ٥٧.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.
- (٤٤) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ١٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١ - ٢.
